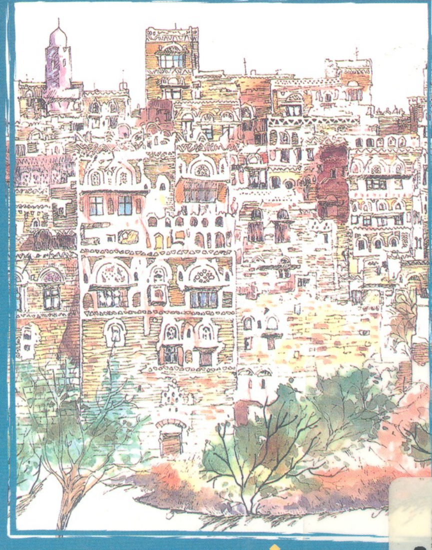
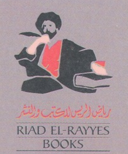
عبد العزيز المقالح

كتاب صنعاء



شعر



كتـــاب
صنعــاء

شعر

عبد العزيز المقالح

كتاب صنعاء



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

THE SANAA BOOK

COLLECTED POEMS

BY

ABDEL AZIZ AL-MAQALEH

First Published in April 2000

BEIRUT - LEBANON

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1 85513 401 2

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: نيسان/أبريل ٢٠٠٠

المحتويات

إليها

كما رسمتها مخيلة الطفولة والكهولة

كانتِ امرأةً
هبطَتْ في ثيابِ
النَدى
ثم صارت
مدينهْ.

القصيدة الأولى

هي عاصمةُ

الروح

أبوابُها سبعةٌ

- والفراديسُ

أبوابُها سبعةٌ -

كل بابٍ يحقق أمنيةً

للغريب

ومن أي بابٍ دخلتَ

سلام عليكَ،

سلامٌ على بلدةٍ

طيبٌ ماؤها طيبٌ

في الشتاءاتِ صحوٌ أليفُ

وفي الصيف قيظٌ خفيفُ

على وابلِ الضوءِ

تصحو

وتخرجُ من غسقِ الوقت

سيدةً

في اكتمالِ الأنوثةِ

هل هطلَتْ من كتابِ الأساطير؟

أم طلعتْ من غناءِ البنفسجِ؟

أم حملتها المواويلُ

من نبعِ حُلْمٍ
قديمْ؟!

* * *

(مكة عاصمةُ القرآن،
باريس عاصمة الفن،
لندن عاصمة الاقتصاد،
واشنطن عاصمة القوة،
القاهرة عاصمة التاريخ،
بغداد عاصمة الشعر،
دمشق عاصمة الورد،
وصنعاء عاصمةُ الروح.
في أعماقها كنزٌ مخبوءٌ
للحلم
وفي رحابِها تقام الأعراسُ البهية

وتولدُ من الحجارة أشكالٌ وترانيم
ويكتب اللونُ الأبيض
قصائدَه الباذخة
ويدوّن الليلُ أساطيره المثقلةَ
بعناقيد الشجن
ومجامر الأطياب
على الجدار الداخلي الأملس
لباب اليمن
كتب شاعرٌ يماني:
هي صنعاءُ حانةُ الضوء فادخلْ
بسلامٍ، وقَبِّلِ الأرضَ عشرا
واعتصرْ من جمالها الفاتن البكر
رحيقاً يضيفُ للعمرِ عمرا).[١]

---

(١) عبد العزيز المقالح.

القصيدة الثانية

هو «غَيمان»

كان اسمه هكذا!

تستريحُ الغيومُ

على كتفيهِ

العواصفُ في سفحهِ

تتكسر

وهو الحبيبُ

وحارسُها الأزلي
يداعبُها حينَ تصحو
يقبّلها حين تغفو
يصيرُ مخدَّتها إذ تنام
ولكنهم ظلموه،
فقالوا له «نُقُمْ» وهو «غيمان»
هل يستردُّ هُويَّتهُ
واسمهُ
ويرى الناسُ ظلَّ ابتسامتِهِ
حين تومي إليهِ أصابعُهم
ذاك «غيمانُ»
يضربُ عمقَ الفضاءِ بهامتِهِ
والقصائدُ تحرس أحلامَ طفلتِهِ
الرائعهْ.

* * *

(خرجت صنعاء من أسمائها مراراً

وتبدلت السلالات

واستطاعت القرونُ المتعاقبة

أن تغسلَ وجه الأرض

من القبور

والقصور

والتفَّ جَسدُ صنعاء بالحرير تارةً

وبالرماد تارةً

و«نُقُمٌ» يغازل أنقاض التاريخ

ويتوقُ إلى تغيير اسمه.

مزّقتِ القرون قمصانَه الخضراء

وتحوّلتْ أقدامُه إلى حصى

وصدرُهُ إلى مخابىء للذئاب
لكن قـمّتَهُ ما تزال نجمةً تضيء في هدأة الليل
حين يشتد الظلام
والحجارةُ فيه تحلم وتتساءل بأيّة شمسٍ ترتوي؟
وبأيّة مطرقة تغير الحروف
وكيف يتناول قهوةَ الصبح من يدِ الحبيبةِ
وهو لا يشعر بالخجل من اسمه المجبول
من ترابِ الانتقام؟).

القصيدة الثالثة

هي في عمر سامِ «ابن نوح»
قصورٌ معتّقةٌ
وشبابيكُ من فضّةٍ
الحمامُ الذي اختطَّها بعد أن هدأ الغَمْرُ
وانحسرَ الفيضان
يحلّقُ فوقَ نوافذِها
ويغنّي لأسلافهِ،
للقناديلِ تومض في أوّل الليل

للضوء يرقص فوق التلال

وللأغنياتِ القديمةِ تنساب رقراقةً في الشوارع.

دافئةٌ ومُدَثَّرةٌ بالبخور البيوتُ

الميادينُ مبتلّةٌ بالأحاديثِ والمفرداتِ الطريّةِ

ماذا يقولون؟

صنعاءُ تغفو على مقعدٍ تحتَ عرشِ الإلهِ

وتمسحُ بالعطرِ أشجارَها المثمراتْ.

* * *

(المدنُ الجميلةُ كالنساءِ الجميلات

لا يخضعن لحساب الزمن

ولا يفصحن عن أعمارهن.

الآثاريون وحدهم يقرأون أعمار المدن

باللّمس.

والأطباء وحدهم يعرفون من ظلال التجاعيد

ثمرةَ الزمن على الوجوه

أحد هؤلاء الآثاريين يقول:

إن الميلاد الأول لصنعاء حدث قبل ٨٠٠٠ سنة

وإنها خُلِقت من أضلاع الجبال المحيطة بها

كان «غيمان» أول من نقش على جبينها

هلال أشواقه

وأول من وهبها من ضلعه الأيسر

الأعمدة الفارهة

أعطاها من جلده النوافذَ المتربصةَ بالشمس

منذ عشرات القرون

وهي تطل على الوادي.

وهو يقفُ بجوارها مفتوح العينين

كأنهُ في انتظار ريشة الزمن العبقري

لترسم لهما صورةً تذكارية تطرّزها
النساءُ في سجاجيد الصلاة).

القصيدة الرابعة

هي عاصمةُ الروحِ
مغمورةٌ بالضّحى والتعاويذ
تومضُ أشجارُ ذاكرتي حينَ أدخُلها
وأراها بأطمارِها تتوهّجُ عاريةً
تحتَ جمرِ الظهيرة
أذكرها ...
كنت طفلاً بعينينِ ذاهلتينِ

رأيتُ مفاتنَها

وبقايا «البُرُود»

وتابعتُ فيضَ خطاها

شربتُ الشّذى،

واستحمّت جفوني بماءِ الظلال

وشاهدَ قلبي ملائكةً يرسمون على الأفق

أوديةً وقصوراً

وأروقةً

كانت العينُ تسمع أصواتَ فرشاتِهم

وترى الأذنُ كيف تصيرُ السحابات

لوناً

وتغدو الحقيقة حلماً

على دَرَج الضوء أدركتُ أنّي بصنعاء

أنّ النجومَ إذا ما أتى الليل

تَرقُص في غرفِ

النومِ

والقمرَ المتوهّجَ يضحكُ من شرفاتِ البيوتْ.

* * *

(يستطيع الفقرُ أن يكون جميلاً

وناصعاً

إذا داومَ النظرَ إلى وجهه

بمرآةِ النظافة

واستحوذ عليه ما أبقت القرون

من ترف الذّوق

وأرصدة الجمال.

هذا ما تتحدث به ألوان الطيف

التي تقذف بها النوافذ الزجاجية من البيوت الصنعانية
إلى الشوارع المعتمة
وفي ضوئها تتلألأ الأقدام
وتتصاعد سحابات من البخور.
أعذبُ المدن،
ليست تلك المسوّرة بلَبِنة من الفضّة
ولَبِنة من الذهب
ولا تلك التي تتوهّجُ الجواهرُ الثمينةُ
من شُرفاتها العالية.
أعذبُ المدن،
هي تلك المسوّرة بالياسمين
والتي تغسل القلبَ
وتوحي للعين بطمأنينة مفاجئة).

القصيدة الخامسة

تَرَجَّلْ

وضَعْ شفتيكَ على بابِ مسجدِها

ويديكَ على خَصرِ مئذنةٍ

وتَلفَّتْ حواليكَ .. ماذا ترى

عالَماً من شموسٍ ومن شرفاتٍ

وأسماءَ منقوشةً

وزخارفَ لا تنتهي

وعوالمَ من كتبٍ،

ومحاريبَ

لا يدركُ النومُ أجفانَها

ومساكينَ أضنى الفراغُ مفاصلَهم

جلسوا القُرفصاءَ

وألقوا براحاتِهم في فضاءِ المكانِ

وأصواتُهم تشبهُ الصمتَ

أو أنّه الصمتُ يُشْبِهُ أصواتَهم

أين تأوي ـ إذا أقبل الليل ـ أعضاؤُهم

وإذا رقدوا أين يخفون

أطيافَ أحلامِهم

عن عيونِ الظلامْ؟!

* * *

(عَبْرَ المدى
ومن خلال النوافذ الصدئة
تصافح العين المآذنَ والقبابَ المغسولة
باللونِ الأبيض
وتحدّق في بيوت عتيقة كأنها الذكريات
الصلوات تنهض ببطء،
وفي الأحياء الخلفيّة يمر الضوء متثاقلاً
في أزقّة منقوعةٍ بالحنين والبكاء.
الأطفال يتحسسون برموش أعينهم نصفِ المغلقة
بقايا اللّوز والزبيب الذي يسقط سهواً
من ناطحة سحاب يسكنها أمير جديد.
البيوت تتكىء على بعضها
والعصافير الواقفة على حافّة النوافذ ترتعش
وتمتص الثرثرات
في انتظار فاتحة الندى).

القصيدة السادسة

هي لي،

ولكم،

وعلى أوّل السّطرِ

فوقَ جدارِ الزمانِ العتيق

على باب «غمدان» نقشٌ يضيء المكان

وتكتبُ أحرُفُهُ المورقاتُ التحيّةَ:

لا تخجلوا إن فقدْتم مصابيحَكم

وخرائطَكم

إن أضعتم عناوين أحبابكم

أو تضاريسَ أسمائِكم

فهي منذ استوتْ فوقَ مائدةِ الأرض

تعرف أسماءَكم،

وعناوينَ من تعشقون

وقد خلعتْ في الصباحِ الجميل متاعِبها

وغبارَ المتاريس

صارتْ تُجيدُ المواعيدَ

تشتاقُ للنّاسِ

والثرثراتِ الجميلهْ.

* * *

(كانت صغيرة في حجم حزني الصغير

ـ يومئذٍ ـ

لا أحشاء لها
ولا أنياب من المطّاط
والحديد
كيف ترهّلتْ وصارتْ في اتساع أحزاني؟
كيف جرؤت أحياؤها الجديدة
على ارتداء قبّعة الوحشة
واستخدام نظارات التنكّر؟!
وكيف تُطاول الأحياءَ القديمةَ
بغرف النوم الحمراء
وبالريش المستعار؟!
لا عشاق لها .. لهذه الأحياء الجديدة.
القادمون من الأقاصي البعيدة يعشقون صنعاء في ثيابها القديمة
وقلبي يتذكرها أيام كانت تقرأ أوراقَ الشمس
والمطر
وتأكل «الدِخِش»
وتقطف ــ في عزلتها الشاردة ــ ورد الفراغ).

القصيدة السابعة

نَحتَتهُ السماء على مَهلٍ
رفعته ليرقى إليها
وشادت عواميدَه من بقايا نجوم خَلَتْ
قصر غمدان،
لا شيءَ يشبه أحجاره،
ونوافذَه المرمريةَ
لا شيءَ يشبهه،

كان يحدو القوافل في الشام

في مصر

يصطاد من فارسٍ غيم تموز

تفترش السحب الراكضات وسائده

وتنام بشرفاته

الشمس عند الشروق تسارع

كي تتملى عذوبته

تتلكأ عند الغروب.

* * *

(أين هو؟

أين قصر غمدان؟ تتساءل عيون الزوار

ولا يأتيهم الجواب إلاّ في ساعة متأخرة من النهار

أو في ساعة متأخرة من الليل:

هو هنا ...

في المسافات الزرقاء الواقعة بين الأرض والسماء

حين تأتي الأمطار

يخرج على شكل قوس قزح

هذه نوافذه، وتلك شرفاته

وهذه طيور بيضاء تحاول الاقتراب

من الستائر الملونة الموشاة بالذهب

شبابيك من الماء

وتماثيل من الضوء

وما لا يحصى من قصائد الشعر

المرسومة بحنين الشمس

وتنهدات الرياح).

القصيدة الثامنة

خاشعاً تتطلع عيناه في فرح
غامضٍ
نحو ما لا يُرى من عصور مضتْ
وانطوت في تلافيف هذا المكان
ومن أممٍ عبرتْ عتباتِ الزمان
وصادقتِ الأمسَ واليوم
أيّ الكنوز النفيسة تخلبُ عينيهِ

تشهق في دمهِ

إن ضوءَ المصابيح

رائحةٌ للشموع

تسافر عبر الممرات

ترسم بالنور ما لا تصدقهُ العينُ

ما لا يصدقه القلب

من أُغنياتٍ

ومن فاتناتٍ تدلتْ جدائلُها

خلفَ صبحٍ من المشربيات

والأعينِ الجائعهْ.

* * *

(إنك لا تستطيع الدخول إلى اللوحة

إنها سطح جميل لا أكثر

أما صنعاء اللوحة الجميلة
فإنك لن تعرفها إلاّ إذا جاوزت السطح
وتخطيت الجدران والفضاء
إلى الداخل،
وإلاّ إذا وقفت في «المنظر»
أو تطلعت إليها من «المفرج»
إذا مشيت بعينيك خلف زجاج النوافذ
وتحسست بالنظر وبالقلب بقيةَ
اللوحات
ليس البرق
ولا قوس قزح
ولا ريشة سلفادور دالي
هي من أبدع هذه النوافذ
ولوَّن هذه الجدران!!).

القصيدة التاسعة

جَسدٌ نازفٌ

في ثياب الصحارى

تجيءُ

بقايا غبارٍ على جفنِها

وغيومُ أسى

تلك صنعاء،

أول من وضعتْ حجرَ المدنيّةِ

في الأرض

أولُ من نازلتْ كائنات الظلام

تجيء إليكم من الماءِ

بعد غيابٍ طويلٍ مع الرمل

والقمل

من ألفِ ليلٍ وليلٍ تجيء

تعود إلى ذاتِها

وإلى أهلها

وإلى زمنٍ تتوهج فيه مرايا التفاؤل.

* * *

(انظروا إلى عينيها البديعتين جيداً

ولا يشغلكم النظر إلى تجاعيد وجهها

ولا يحزنكم الغبار العالق في الأجفان
انظروا إلى فمها،
في الشفتين موجز تاريخ العرب
وخارطة للأمواج التي حاولت
امتطاء الجبال
لا تخافوا عليها من الشيخوخة
فهي تمتلك السر الذي يجعلها
تخلع شيخوختها وتغادر سن اليأس
تذكروا دائماً
أن أخطاءها الذهبية
أفضل من صوابكم العقيم
ونوافذها المفتوحة على كل الاحتمالات
أقدر على التعبير من أفكاركم
الموصدة!!).

القصيدة العاشرة

في أول الليلِ
ينهضُ شوقُ المدينةِ
مخترقاً صمتَ حيطانها العاليات
ومثل ملاكٍ يحط على الشرفات
ويمسح نارَ تجاعيدِها
وإذا ما أطلَّ الصباحُ توارى،
تسرب من حائطٍ قشّرته بأشواقهنَّ

عيون الصبايا

وأحلامُهن إلى زمنٍ مورقٍ بالمحبة

لا رعبَ فيهِ

ولا فقراءَ من الروح

والكِلْمةِ الصافيهْ.

* * *

(للمرأة الآن أن ترى

أن تقرأ

أن توقد الشموع لميلاد جديد

أن تفتش في حقائب الزمن

عن أسماء الأمهات والجدات

عن أجيال من النساء

كانت لهن عيون لا يبصرن بها

وقلوب تعرف الحنان ولا تعرف الحب.
ولصنعاء القابلة الأولى
أن تبشر كل مولودة جديدة
بأن البيوت لم تعد قبوراً
والمرأة لم تعد جارية!!).

القصيدة الحادية عشرة

الكهوف العميقة في صدرِ «غيمان»
في صدرِ «عيبان»(*)
ماذا تخبئه من أساطير هذي
المدينةِ
من ماءِ أسرارِها
أي صخرٍ أصمٍ تماهتْ
على قدميهِ الدهور

(*) عيبان: جبل عظيم جنوب غرب صنعاء.

يضيء الكلامُ، ويخبو

تقوم العروشُ وتفنى

و«غيمانُ» في عرشِه

مبهمٌ صامتُ

يا لصنعاء ...

سيدةٌ لا تبيحُ السفورَ

وترفض أن تقرأ الشمسُ

أن يقرأ الليلُ أوراقَها

أو يلامسَ سر الطلاسمِ في اللوحةِ

الغامضهْ.

* * *

(أهي طعنات التاريخ في خاصرة

الجبل

أم عيون الكبرياء منحوتة في جوف
صخر لا يتألم؟!
في هذه الجيوب الصخرية تخبىء الجبال
مفاتيح المدينة
وتطوي أسرار القرون
يتخطاها المطر
تتخطاها الشمس
لا يصل إليها ضوء النجوم
وما تحمله من أمانات وكنوز
صارت تتململ داخل سبات الدهشة
عبثاً يحاول الإنسان الاستيلاء
على كنوز هذه البنوك الجبلية
وعبثاً تحاول المدينة).

القصيدة الثانية عشرة

هو مجذوبُ صنعاء
يمشي على قلبِهِ
ويسافر فوقَ بساطٍ من الشطحاتِ الجميلةِ
لا أصدقاءَ لهُ غير توتِ البيوت
يناوش أطفالَها وعجائزَها بالأساطير
بالكلمات الغريبة

هل عاش أم هل يعيش كما
تدّعي الشطحات هنا
منذ «ألفين عام»
يقلب أحجارها حجراً
حجراً
يتكلم أكثر من لغةٍ
ويُبدِّل أقدامه كل قرنٍ
ويُلقي عصاه؟!

* * *

(سألته عجوز في الحارة
لماذا تتحدث إلى الأحجار
إنها لا تسمع
ابتسم، ونظر نحو الجدار في حزن

وقال:

الحجر غيمةٌ مجمدة

سحابةٌ لا تتحرك

أغنية محـمَّلةٌ بأنين القرون.

يحتاج الإنسان أن يعيش سبعة آلاف عام

لكي يسمع ما تقوله هذه الأحجار

ولكي يقرأ ما تحتفظ به من كتب الصمت

ثمةَ نهارٌ وشمسٌ في قلبِ كل حجر

ثمةَ سماء، وقصائد تائهة

قناديلُ مشتعلة من دون زيت

وشبابيك لا يطل منها سوى وجه

التاريخ).

القصيدة الثالثة عشرة

هي صنعاء،
لا تعرفُ الليلَ
كانت تنام مبكرةً
والسماءُ تنادي
وتجلو مفاتنَها فوقَ صنعاء
تومض مختالةً
مثلَ ماءِ البحارِ البعيدةِ

زرقاءَ صافيةً

وإذا ما أتى الليل أطلعتِ الجمراتِ

المضيئةَ

في ساحةِ الأفق

واحتشدتْ في ثيابٍ من العري

لا أحدٌ سوف يرقبها وهي تختال

في قبة الكون

تهبط،

ترقى

ولا من حسود.

* * *

(مدن كثيرة تحترق بالأضواء

وتتآكل في جوف الظلام

وصنعاء نائمةٌ في حضن الوادي
تتهجَّى الأحلام
وتتحسس غبطة الليل
لا تبدو النجوم في مكان آخر
بمثل هذا السطوع
والسماء التي تبدو قريبة
تتحسس أعناق الجبال
وتداعب أشجار السرو العالية
لا تكون كذلك في أي مكان آخر
يقول سائح ألماني لرفاقه:
«انتظروني حتى أصعد إلى غيمان»
ومن أعلى ذروة في القمة
أقطف نجمةً أو نجمتين
وأعود إليكم).

القصيدة الرابعة عشرة

حين جئتُ إلى الأرض كانتْ معي
في قماطي
وكنتُ أرى في حليب الصباح
بياضَ مآذنها
والقباب
وحين هجرتُ البلادَ،
ابتعدتُ
إلى قارةِ المسك

كانتْ معي
في القصائد مترعة بالغناء الكتوم
وفي الكتب المورقات بماءِ الأساطير
كنت أراها تسافر في الأبجديات
في لوحةٍ من نجوم السماء
أراها
فتمنحني عطرَها ومواعيدَها
وعلى كف أشرعةِ الشوق
تومىءُ لي أن تعالْ.

* * *

(من أين لكلماته اليابسة ماءٌ فتورق،
مذ كان يجلس على مقاعد الفصل الثالث الابتدائي
وهو يحلم بأن يناديها
أن يخاطب الغيمةَ الواقفةَ خلف الأسوار

أن يداعب بالقصيدة كل حصاة ملونة

على الرصيف

أن يشارك في كتابة الأغاني

التي ترددها الأزقة الضيقة

تكلَّمَ،

كَتَبَ،

سافرَ،

رأى كثيراً من المدن والناس

قرأ كثيراً من الملصقات

واكتشف خيوط المطر وهي تغزل القحط

وشاهد البرق الصامت وهو يرسم

على الجدران قتلى وبنادق

رأى العصافير الملونة وهي تتخلى

عن أعشاشها للثعابين،

بكى ...).

القصيدة الخامسة عشرة

حين تشتبكُ العينُ بالدمع
والقلبُ بالحزن
هاجِرْ إليهِ،
إلى جامع «اليعْفُريين»
واغسلْ جفونَكَ في مائهِ
في صلاةٍ تنامُ بأهدابِ
سادنهِ

سترى في رواقِ «المنيبين»

أكوابَ مسكٍ

عناقيدَ ضوءٍ

ملائكةً يخلعون عن الناس

أحزانهم.

ستشاهدُ حزنَكَ

طوبى لقلبٍ تطهَّرَ

أمسك شمسَ الرضى بأصابعهِ المتعبات

وأطلق للروح برقَ الكلام

المباح.

* * *

(تساقطتْ أسماءُ المهندسين

والبنائين

وبقي الجامع الكبير
بأجنحته الأربعة
وبرواقه المفتوح على الشمس
والمطر.
في خزانة الكتب المتكئة
على المئذنة الشرقية
تعلمت القراءة الصحيحة المفتوحة على الروح
وتفتحت شهيتي للكتب الموسوعية
وخطفني ـــ لفترة من الزمن ـــ سحر المخطوطات
وكنت كلما التهمتُ كتاباً أسلمتني أوراقه
إلى كتاب آخر
وكلما أنهيتُ صلاة
شدَّني صوتُ المؤذن إلى
صلاةٍ أخرى).

القصيدة السادسة عشرة

ذاهبٌ وقتهُ بين أولِ بابٍ
وآخرِ بابٍ لها.
يتذكر أيامَهُ في شتاءِ الطفولةِ
مرتعشاً،
حافيَ القدمين
وفي صدره يتثاءبُ صوتٌ
هو الشعر

يصطاده من غناءٍ تدلى من الشرفات

تجمدَ في حَجرٍ

أو إناءٍ من الورد

عيناه عاشقتانِ تجيدان

همسَ التلصص

في خجلٍ تحلمان بوجهِ نقيٍ

وعينينِ دافئتينِ

وقلبٍ من اللؤلؤِ الآدمي

الكريمْ.

* * *

(ما زال ذلك الطفل الهائم

عند أبواب مدينته الأولى

يحدق في بقع الضوء المرسومة

على واجهات المآذن المكللة

بالبياض

قد تتآكل الجدران

وتتغير مفاتيح المنازل

لكن إيقاع الأقدام الصغيرة

في شارع «خضير»

ما يزال يشعل المصابيح

في الذاكرة المعتمة

ويمدها بفيض من الألق

وكالموسيقى

يتسلل ذلك الإيقاع إلى غرفته

في زيارة جريئة

تمسح عن وجهه تجاعيد الكآبة.

القصيدة السابعة عشرة

أتوسلُ للغيم
للسحبِ الممطرات
بأن تحملَ الماءَ للنهرِ
هذا الذي كان نهراً
يوزع أنداءه ويغني المواويل
يغسل صدر التراب
وصدر المدينة

أسأل أين اختفى؟
ذبُلَتْ ـ منذ جفَّ ـ النوافذُ
واحترقتْ بالغبار المناديل
والضحكات البريئة
هل سيعود؟
سنمنحه ما تبقى من الحب
بين يديه ستفرش صنعاءُ حلمَ ضفائرِها
وعلى ضفتيهِ تصلي
وتكتب أحلامَها المقبلهْ.

* * *

(كان للمدينة نهر
يغسل أقدام البيوت الساكنة على ضفتيه
ويبعث بنسماته الطرية إلى بقية الأحياء

والبيوت

وكان وجوده يمنح الجسر القديم

معنى الماء

لا تتحدث أوراق التاريخ كيف اغتاله الجفاف

ولا عن الجلادين الذين كانوا يصطادون عصافير الضوء

ويقتلون الأنهار

وكلما مررت بالنهر الجاف

رأيت على وجه الجسر سؤالاً

لم تستطع العين التقاط فحواه

وبعض النوافذ المطلة تشهد

أنها تستطيع رؤية الماء وهو يركض

في طريقه إلى ... الصحراء).

القصيدة الثامنة عشرة

دُخَانُ المطابخِ
أخضرُ،
مثل حديقةِ ضوءٍ تطاردُ
أشجارَها
وهو يكتبُ فوقَ المنازِل
أشهى الكلام
ويرسمُ فوقَ السطوحِ

موائدَ مزدانةً

بخزامى الجنوب

وكرمِ الشمال

وحقلاً من العسل (الدوعني)

(انتظرْ)

تترك القهوةُ اليمنيةُ في أفقِ صنعاء

شيئاً من اللون

مثل الغمام الشفيف

كلوحات «ماتيس»[2]

(لا تتحرّكْ)

هنا غيمةٌ

عبرت في الطريق إلى جبلٍ

يتململ شوقاً

ويرشف قهوتهُ

---

(٢) «ماتيس» فنان تشكيلي فرنسي

وهنا صِبيةٌ

في ازدحامِ الظهيرة

يختصمون على لوحةٍ مطفأة.

* * *

(الفتيات الجميلات فقط

هن اللواتي يوكل إليهن إعداد «بنت الصحن»

وتزيين الوجه اللذيذ بالسّمسم

وحبّة البركة...

عندما لا تكون الفتاة جميلة

فإن اليد لا تتذوق اللقمة

والصحن الساخن لا يتمتع بفيض من العاطفة

ولا يفتح شهية القلب

ولا يستجيب لتشكل القمح في الذاكرة

والعسل لا يجد مجراه في امتداد الروح.

كتب أحدُ الأجانب:

رائحة الخبز الصنعاني معقودة بأنفي

منذ عشر سنوات

وصورة الفتاة المحجبة بائعة «الملوج» في سوق القاع

لا تغادرُ شاشةَ العين

ولا محيطَ الذاكرة).

القصيدة التاسعة عشرة

خذوني لسوق الزّبيب
ولا تحرموا شفتي من لذيذِ النّعاس
وطُوفُوا بقلبي على سوقِ فضّتِها
حيث يأخذُ منه الصباحُ مداداً
وريشاً لألوانه
وإذا ما رأيتُم رذاذاً من العطر
ينزلُ

عَبْرَ الأشعةِ

ذلك سوق «العطارة»

حيثُ الجميلاتُ يغسلنَ أثوابهن

برائحةِ المسكِ والياسمين

وحيث الزهور مجمدةٌ

في انتظارِ القواريرِ

والعشق.

حيث الفضاءُ الجميلُ يغادر موقِعَهُ

راضياً

لينامَ هنا في قرار الزجاج

ويحلم بالمتعةِ

الباذخةْ.

* * *

(لا توقظني أيها الشاعر

لا تُفسد أحلامي

هكذا تحدث شارع «خضير».

واصل الحديث: إذا كنتَ جئتَ لتسأل عن «مريم»

لتبثّها ما تبقى من هواك

ومن شكواك

فإنّ مريم قد رحلتْ

اختزل «التفوئيد» عمر جسدِها المورقِ الجميل

ولم يبق في الحيّ

ولا في البيت منها

سوى بقايا ومضةٍ شاحبة

تمتد فوق الأرصفةِ الحزينة.

من نحبُّهم يمضون ولا يأتون

آه، يذهبون ولا يرجعون.
هل تستطيع ذاكرة المقابر
الواقفة عند تخوم المدن
أن تقول لنا شيئاً عنهم؟
هل يتذكرنا الموتى كما نتذكرهم؟
وهل تطاردهم مثلنا أظافرُ الكهولة
وأنياب الشيخوخة؟
هل ظهرت التجاعيد على وجه مريم؟).

القصيدة العشرون

باريسُ، دوُنَكِ

في العطرِ

والسّحرِ،

والثرثرات البريئة

والتّمنمات على واجهاتِ البيوت

ولندن، دُونَكِ في الشَّمس

واللَّمسِ

والضّوء

والظلّ،

في غيمةٍ كنداءِ المصابيح

عابرةٍ في ظهيرة صيف مرير

تراوغ،

تطفو،

تحوم،

على شرفات المنازل تحبو

وترسو على أفق المئذنهْ.

* * *

(في كتاب المديح

كلمات قليلة، ومبلَّلةٌ

بالعشق لصنعاء

ومنذ قرن وهي تحاول الخروج

من جلد القصائد الهرمة
كهذا البيت لشاعر من مطلع هذا القرن:
«باريسُ دونكِ في الجمالِ ولندنٌ
وعواصمُ الرومانِ والأمريكِ»[٣]
ولكي يتمكّن الشاعر من اصطياد الشعر والصّدق معاً
بجملة واحدة يضيف:
إن جمال تلك المدن مُتَكلَّفٌ ومن صنع
الإنسان
أمّا جمال صنعاء فهو من اللّه
الذي لا يكفُّ عن إرسال ملائكتهِ
ليغسلوها من الأحزان والصدأ
ولكي يرسموا على أسوارها تجليّات
الشوق والعذوبة).

(٣) البيت من قصيدة تنسب إلى الشاعر الجواهري. وهو ابن عم الشاعر العربي الكبير محمد مهدي الجواهري.

القصيدة الواحدة والعشرون

الإضاءة خافتةٌ
والزّمانُ يفتّش عن نفسِه
في الأزقّةِ
يسأل أحجارَهَا عن صباه
وعن عشقهِ في أماسيّ الشّباب
وها هو ذا يتحسّسُ وجهَ الحوائطِ
هل يتذكرها حين جاءتْ من الغيمِ

كي تستقرَّ على الأرض

تحفرَ أصواتَ من سكنوا

وتسجّلَ «روزنامةَ» الوقت

هل أدركَ الفرقَ بين تجاعيدهِ

وتجاعيدِها

والمسافةَ بين الصديقينِ؟

هل سمعتْ روحُهُ

الريحَ وهي تغنّي:

لقد شاخَ وجهُ الزمان

وصنعاءُ تكبر

لكنها لا تشيخ.

* * *

(هو الفضاء المستور

الصوت الذي لا يسمعه أحد

صديق الوحشة والذكرى
فرد جناحيه ـــ الليل والنهار ـــ
على الأرض والناس
والأشياء
لا حدود له ولا خرائط
رقمٌ طائر
لا يسند رأسه إلى صدر الأيام
ولا يبدّل أحذيته لأنه بلا قدمين
هل من أحدٍ رآه؟
في أيّ مكانٍ من خلايا الأرض
يسكن
هل يعيش في أطراف الحجارة
أم في ذرات الطين؟!
ولماذا تطالعنا روائحه في المسلات القديمة

والجداريات المرمرية
الغبراء
ولا نقرؤه إلاّ في العظام
الشائخهْ؟).

القصيدة الثانية والعشرون

ذات عصرٍ
ذهبتُ أنا وصحابي لنرتع
فوقَ الهضاب القريبةِ
أدركنا الليلُ
حين رجعنا وجدنا المدينةَ موصدةً
وذئابَ الظلامِ تحاصرها
وهي عاكفةٌ تكتبُ الفجرَ
ساعَتها طافت الروح ـ ليلاً ـ

بأبوابها السبعةِ الحجريةِ

ثمةَ ضوءٌ

يحاول أن يعبرَ السور

أن يتوكأ بالصوت

حاولتُ،

حاولَ كل الرفاق الصعودَ عليه

فلم نستطعْ، خذلتنا أصابعُنا.

تلك رؤيا تهز دمي

أيقظتها مياهُ التذكر

أطلقَها من شظايا الظلام

جدارٌ قديم.

* * *

(قبل أن يغمد الغزاة خناجرهم

في أوردة الأحياء والمنعطفات
قبل أن تتوقف الغزلان الرقيقة
عن اللعب على الطرقات البرية
كانت أسوارَها الجبال
وسيوفَها أوراقُ الورد
وأغصانُ الريحان
لم تكن تخشى الظلام
أو تضع حراساً عند الأبواب
ولم يكن الأرق ينتحب في عينيها
ولا صفارات الخوف تمزق براءة صمتها
بعد ذلك
صارت ترتعش من لون المغيب
وتوصد أبوابها السبعة
في وجه آلاف الذئاب).

القصيدة الثالثة والعشرون

يذهبون إلى البحر
يفتنهم موجُهُ،
وتداعبهُمْ في العشياتِ زرقةُ عينيهِ
شاعرُها يجد البحر ـ مضطرباً تارةً،
هادئاً تارةً ـ
في عيون الحبيبةِ «صنعاء»
وهو يغازل أحجارها

ونوافذَ أبراجِها
جالساً بين أوراقِ تاريخها
يعشق المفرداتِ المضيئةَ
واللحظاتِ المضيئةَ
يبكي إذا انكسرتْ
ويغني إذا انتصرتْ
إنه طفلها، وقصيدتُها
المورقهْ.

* * *

(عبر الطرقات الجبلية
وعلى خيول الكلمات
جاؤوا
من شرفة القصيدة
انحدروا

وحفرت أشجانُهم على مداخل المدينة
نيرانَ شوقٍ لا تنطفىء
عانقوا الشوارع المضيئة بالتاريخ
ومثل حليب الأمهات الدافىء
شرب الناس قصائدهم
فأضاءت القلوبُ بالألم اللذيذ
وامتلأت الطرقات بالأمواج
وحين تستيقظ وردة الصباح
في مطلع كل يوم
تحمل الطرقات الجبلية عشاقاً آخرين
على خيول كلمات جديدة).

القصيدة الرابعة والعشرون

ذات حلمٍ
هبطتُ على سلَّمٍ من أساطيرَ
محفورةٍ في ضمير الزمان
رأيت بيوتاً من الضوءِ
أعمدةً من نهار بهيجٍ
وأسواقَ من فضةٍ
وشوارع من ذهبٍ

قيل لي: تلك صنعاءُ
كان المغنون والشعراءُ يطوفون
في ساحةٍ أورقتْ بالتلاميذ،
والعلماءُ يجيدون عرض مهاراتهم
إنَّ صنعاءَ غير التي في دمي
لا يراها سوى الحلم، نافرة،
ولها جسدان وشمسان
فاهبطْ على سلَّم من مرايا الحروف
وصَفِّقْ إذا ما وصلتَ
أقاصي المدينهْ.

* * *

(تحت صنعاء مدن كثيرة متعددة الأسماء
اغتالتها أصابع الزمن

ذات يوم صرخ أحد السواح:
صنعاء تنام تحت صنعاء.
بدأ الحفر بأظافره
وجد سلَّماً من الرخام
يؤدي إلى غرفٍ ذات ضوءٍ
صاعق
وإلى سلالم مغطاة بسجاجيد ناعمة
في واحدة من هذه الغرف
رأى مسرجة من المرمر الأبيض
كانت تتحدث بلغة لا يفهمها
ورأى أشخاصاً نائمين
يتأهبون للصحو
وبجوارهم سيوف من الذهب الخالص
وقبل أن يسعفه الجنون
كان في طريقه إلى المطار.

القصيدة الخامسة والعشرون

تكتب الشمس فضّة أنغامها

في مرايا البيوت العتيقة

لا يصدأ اللحن

تورق أشجارُه فتصير حدائق

للضوءِ

أجنحةً للحنين

مرافىءَ للحب

صنعاء، ليست بيوتاً ـ تقول العيون ـ

ولكنها أغنياتٌ معطّرة الشرفات

تغني إذا ابتهجت

وتغني إذا اكتأبت

للغمام تبث طفولتها

وتبث أساطيرها وتنام

وفوق سرير من الكلمات القديمة

تهدي إلى الأرض،

«عن ساكني»(٤) «ليتَ بيضَ الأماني»(٥)

و«صنعا حَوتْ كل فن»(٦)

* * *

«ابن فليته»

العيدروس

---

(٤) مطلع قصيدة بالعامية للشاعر عبد الرحمن الأنسي.

(٥) مطلع قصيدة بالعامية لشاعر غير معروف

(٦) مطلع قصيدة بالعامية للشاعر المفتي.

ابن شرف الدين

عبد الرحمن الآنسي

علي بن محمد العنسي

المفتي

هؤلاء، وغيرهم من شعراء العصر الذهبي للأغنية

هم الذين أدخلوا ناعم الكلام

على ناعم العود

وأوقدوا في الأصابع جمر الموسيقى

وحين حكمت الكائنات المتحجرة

هذه المدينة

وحطمت الهراوات قناديل الفن

أغلقت المنازل نوافذها

حتى لا تطير الألحان).

القصيدة السادسة والعشرون

تضيقُ بساتينُ صنعاء
تغتالها ـ تحتَ جُنحِ الفسادِ ـ الدكاكين
لم يبقَ من حائطٍ لم يسرْ في الجنازةِ
لم تبكِ عيناه.
لا أحد من عصافيرِها سوفَ ينسى
البساتينَ
أو أن ذاكرةَ الشجرِ الباقيات

ستذبل،

أو تتخلى عن الذكرياتِ الحميمةِ

كلُّ البساتين مرسومةٌ في انحناءات

حزن البيوت

ومزروعةٌ في نوافذها

في ندى الصخرِ

لا تتفتتُ

لا يعتريها الفناء.

* * *

(دافئةٌ هي الأحجار

دافىءٌ هو آجُرُّ البيوت القديمة

دافئاتٌ عيون العذارى

دافئة البساتين المزروعة في قلوب

الناس

دافئة هي الزهور

المنتشرة في ابتساماتهم

ولذيذة فواكهُ المحبة

وعناقيدُ الحرية

بستان «الطاووس» يتراجع

بستان «الجوزة» يضيق

بستان «السلطان» كان!

بستان «الهبل» محاصر بالمعاول

لكن «بنوك» التراب

لا تستطيع «تنظيف» الأرض

من الخضرة

ولا «تنظيف» السماء من

النجوم).

القصيدة السابعة والعشرون

هي «سمسرةٌ» للنحاس[٧]

وللفن

تفتحُ أبوابها للطبيعةِ ظلاً وشمساً

وفي كل ثانيةٍ

يتصاعدُ من قلبِها عبقٌ فاتنٌ

للقرونِ البعيدةِ

كم حملتني حجارتُها فوقَ غيمِ السنين

(٧) «السمسرة» هي الخان القديم.

لأزمنةٍ لا حدود لها
لا مدى
وإذا ما اشتكى جسدي من ضمور اللغات
ارتميتُ على حائطٍ ليس يعرفني
وشكوتُ له بؤسَ ذاكرتي
وجفافَ مدادي
فأورقَ من شرفةِ الماء
صوتٌ شفيفٌ
ووجه أليفْ

* * *

(من شقوق السور العتيق
لسمسرة آيلة للسقوط
تتصاعد ألحان شعبية مبللة

بعطرٍ قديم
كل أثرياء المدينة
كل الأثرياء القادمين إلينا
عبر العصور
تركوا بصمات أصواتهم
وشيئاً من ذكرياتهم، هنا
على الحوائط الداخلية لهذه السماسر
الخان،
السمسرة،
الفندق،
ثلاثة أسماء مختلفة لمكان واحد).

القصيدة الثامنة والعشرون

هي واضحة مثل كفٍ صغير لطفلٍ
ومبهمةٌ كالأساطير
خمسون عاماً من العشق
لم يقرأ القلب في الجسد المتفتح للضوءِ
إلا خطوطاً تداعبها الريح
أو ألقاً يتناثر فوق النوافذ
يا حطبَ القلب أوقِدْ نشيدكَ

وارحلْ بعيداً

إلى حيث تخفي الجميلة

أسرارها

وتمهلْ إذا ما وصلت إلى «الكنز»

لا تفضح السر

إن الهوى كَلِفٌ بالرموزْ.

* * *

(يقول العام التاسع والخمسون

إن هذا الكهل حين يتمكن من اكتشاف روحه

قد يتمكن من اكتشاف بعض الأسرار

المدونة داخل الأبواب السبعة لهذه المدينة

التي لا تخضع للامتثال أو الانكشاف

وبلا خجل أقول: إنني بعد كل هذا الزمن

لا أستطيع الاقتراب من دهاليز الروح

ولا من قراءة الكتابات الضوئية

المدونة على الجدران العتيقة لصنعاء

ويصور لي الوهم ـ أحياناً ـ أن طفل المساء

يستطيع ـ بسهولة ـ أن يقرأ ما وراء الغيوم الفضية

التي تقترب من جبالها الصخرية الملساء).

القصيدة التاسعة والعشرون

مثل «كانَ»

على هيئةِ الزمنِ المتواري خلفَ القرون

تجيئكَ صنعاءُ شاحبةً

تتوكأُ عكازةَ الوقت

لا تتذكر شيئاً عن الأمس

لا تتذكر شيئاً من اليوم

أسوارُها تتآكل

آجرُّها يتقشر

أقرأ في صمتِ أحجارها

حشرجاتِ العصور

أرى رعشةَ الخوف عبرَ شبابيكها

وأشم الكآبة في لونِ أحداقها

الناصلهْ.

* * *

(سامحيني إذا كنت قد رأيتك في الحلم

بلا نوافذ

وبلا أبواب

وقد وقف عند كل باب من أبوابك السبعة

خنزير يصفع بذيله وجوه الحمام

وسامحيني إذا كنت قد رأيتك

في حلم آخر
جثة هامدة ترفل في أكفانها
والأطفال العراة يشدون الكفن
من كل جانب
لعلهم يفوزون بقطعة منه
فيغطون بها ميتاً آخر
هو الشعب).

القصيدة الثلاثون

بينها والجبال المحيطة ودٌّ قديم

وخوفٌ قديم

إذا هبطَ الغيمُ،

صلَّى الندى

في الحدائق

وارتعشَ الضوءُ في الغرف

العاليات

وإنْ أطبقتْ سحبٌ في الظهيرة
أو شهقتْ في الكهوف الذئابُ
اشتياقاً إلى دمها
وأَدتْ حورياتُ المدينة
همسَ الخلاخيل
واختنقت في المحاريب أصوات
من آمنوا بالمحبة
يا طفلَها،
لا تخفْ
إنها الشامخات تسوّر بالظل
صنعاء حيناً
تسورها بالدخان
وبالنار حيناً
ولكنها الديدبانُ،

يُزينُ بالغيمِ

تاجَ مواهبِهِ

ويداعبُ بالصخرِ عرشَ السماءْ.

* * *

(يفتح الجبل نافذته كل صبح

ليلقي التحية على سره المطفأ

يقولون: إن الجبال لا تتكلم

وإن الحكماء من البشر

يستمدون منها

ذهب الحكمة

وفضة الإصغاء،

لكن أحداً لم يقل إن الجبال

لا ترى

ولا تسمع

وإنها لا تشتعل حزناً وغضباً

عندما ترى رماد الجوع

يغطي وجوه الأطفال

وترى الكثرة الغالبة من سكان المدينة

وقد تحولوا إلى كائنات

مشوهة

تقصفها الأغاني الحامضة

والشعارات الصفراء).

القصيدة الواحدة والثلاثون

صباحاً جميلاً
ومعذرة يا ابْنةَ الشمس
لا شيءَ في شفتيَّ سوى قبلةٍ
من كلام
ولا شيءَ تحمله راحتي غير باقةِ حبٍ
مدلهةٍ
كنتُ خبأتُها في دمي

وأتيتُ لأزرعها تحت أقدامك العاريات

ولا شيء في وتري غير «دندنةٍ»

شاءَ حظي التقاطَ «مقاماتها»

وهي عابرةٌ

تحتَ شباك بيتٍ قديم

أتيتُ لأنثر بين يديك مقاطعَها

وأقولَ لمن ترتدي حزنَ عيني

وأشواق قلبي: سلاماً سلاماً.

* * *

(شاعر ورحالة عربي اسمه أمين الريحاني

كان قد رأى

وعاش في نصف المدن العالمية

الحديثة

حين أطلَّت صنعاء من جفنيه صرخ:

«أي صنعاء،

مثَّلكِ لنا التاريخ فكنت مليكة الزمان

ومثَّلكِ لنا العلم فكنت يوماً ربة العرفان

ومثَّلتْكِ لنا الأساطير فكنتِ سيدةَ الأنس والجان

هذه بيوتُك العالية وقصورُك الشاهقة

فما كَذبَ التاريخَ.

وهذا جمالُك الطبيعي وبهاؤك العربي

فما كَذَب الشعر.»

وفي كل صباح تستيقظ العصافير باكراً

لتقول: وما كذب الريحاني!!).

القصيدة الثانية والثلاثون

هي مؤمنةٌ
يتدفَّقُ إيمانها كالنوافيرِ
لكنها لا تطيقُ الغُزاةَ
ولو آمنوا
وبكوا في المحاريب
لو أدمنوا الصلواتِ
مدافعهُم وهي تبني القبابَ

تشدُّ إليها الحداءات

تجرحُ صمتَ هديلِ

الحمام

مآذنُهم لم تكن غير فَزَّاعةٍ

للمصلّين

غير دمٍ يُضْرِمُ النارَ في القَش

ماذا يريد الأناضول؟

صنعاءُ تكره هذا الحضورَ المريب

وهذا الغرابَ الذي حطَّ

فوق المآذن.

حِصَّتُها من حسابِ السماءِ

تعادلُ ما جمعتْ مدنُ الشرقِ،

والغربِ

ما حملته حناجرهم،

والوجوه.

* * *

(«جامع الزُّمُر»

مسجد «البَكِيريَّة»،

مئذنة «الغُرْضي»)،

ثلاث هدايا نفيسة

تكتب كل يوم

بأصابع الكلام

اعتذار العثمانيين

عما ارتكب جنودُهم من آثام

وتبعث للجثث المدلاة

في سقف قصر غمدان

اعتذاراً يتصاعد مع أذان الصلوات

الخمس

مصحوباً بفيوض من الوجد

والتأملات

ويختلط بمزامير ملائكة قادمين

من الفضاء العلوي

وبأصوات مبتلَّةٍ بأعشاب النجوم.

ويبدو أن «غمدان» قَبِل الاعتذار

وإن لم يقل شيئاً

وإن الحزن أصبح

حجراً بارداً

وصنعاء لا تزرع الحقد

في حدائقها

المفتوحة للشمس).

القصيدة الثالثة والثلاثون

سألتْ نجمةٌ وهي تعبر أجواءَ صنعاء
هذي المدينةُ لا سقفَ يفصِلُها
عن بساطِ السماءِ
ولا خوفَ يدركها من أعالي الجبال
لماذا يحالفها الحظُّ والفقرُ
هذه المدينة
كيف ترافقُها فضةُ الشمس

حتى المغيب؟

لماذا إذا عَبرتْ نجمةٌ تخلع

الوشوشاتِ

على بابِها

ثم تمضي بأبهةٍ لا تخافُ الضبابَ

ولا الليل؟!

ساعةَ مَرَّ المغني وفي شفتيهِ السؤال

تذكرتُهُ...

ذلكَ الطفلُ

حين استقرتْ يداهُ على بابِ صنعاء

أطلقَ زغرودةً

ورأى غيمةً تستقر على سطحِ بيتٍ قديمٍ

وأخرى تحوم على صدرِ نافذةٍ مقفلهْ.

* * *

(هذه هي:

حوائط، ومداميك

مستطيلات ومربعات

إحساس غني بالشوق الأبدي

تبدو لي أحياناً طرية طازجة

تنبض بالحياة، والأغاني

وأحياناً تبدو جمجمةً خاوية

يتقرفص داخلها الدخان والخواء

أحياناً تبدو امرأة جميلة ذات أهداب رقيقة

وأنف جائع للتحدي.

وأحياناً تبدو لي عجوزاً طاعنة في السن

تستعد للاحتضار.

صنعاء لها وجه قديسة

ولسان حكيم

وصوت شهيد

وعواطف شاعر).

القصيدة الرابعة والثلاثون

يكتب الحجرُ المتوهّج أشكالَهُ

واِمتداداتِهِ،

في الفضاءِ حنينٌ

إلى الشرفاتِ

قصورٌ من السروِ

صفصافةٌ تتحدى النجومَ

بأوراقِها

حجرٌ أبيضُ القسماتِ،
وآخرُ أسودُ
يحتفلان بميلادِ عاصمةِ
الروح
في عيدِها
حجرٌ طازجُ اللونْ
حجرٌ ناصلُ اللونْ
حجرٌ يتشكل في حجمِ كف
اليمامةِ
آخرُ في حجمِ
بارجةٍ
ثم أقواسٌ استيقظتْ
خرجتْ من غبار الزمان
وأعمدةٌ؛

وقبابٌ،

وما ليسَ تُحصي القصائدُ

من حجرٍ مورقٍ،

وأساطيرُ آجرةٍ،

وكتابْ.

* * *

(في كل صباح خريفي يخرج الشاعر

من نومه

قبل أن يطلَّ وجه الشمس

من وراء «غيمان»

يرتدي دهشة الأطفال ويحشر نفسه في الأزقة

الضيقة

ليكتب تاريخ الحجارة

وأحلامها

حجارة من كل الألوان

والأشكال، من كل الأزمنة والعصور

ذات صباح أنصتَ الشاعرُ بعينيه إلى صوتٍ

طالعٍ من حجر أخضر يقول:

ليس البشر وحدهم من تتعدد فيهم

الألوان

والأجناس

الأحجارُ أيضاً تتعدد ألوانها:

أحجارٌ غائمة في لون الفجر

أحجارٌ في لون الظهيرة

أحجارٌ في لون الغروب

أحجارٌ في لون الغَسَق

أحجارٌ ذهبية

وأخرى فضية

أحجارٌ من العقيق

وأخرى من المرمر متعدد الألوان

والأضواء

الفارق بين الأحجار والبشر

أن الأحجار لا تعرف العنصرية!!).

القصيدة الخامسة والثلاثون

إذا انتصفَ الليلُ

جاعتْ يدي لملاقاةِ عينيك

واشتبكتْ في الظلام الأصابعُ

للنور عاصفةٌ في فضاءِ المآذن

لا تهدأ الكلمات

ولا تشتكي من عناء السباحةِ

في الأفق

أخرجُ للسطحِ، ماذا أرى؟
غابةً من مرايا
ملائكةً ينشرون الغيوم
على الهضبات
نجوماً مهرولةً في الفضاء
وأخرى تداعبُ نارَ الجبال
وتسألُ عن شارعٍ في «آزالْ»[٨].

* * *

(في هدأة الأشياء
وبعدَ أن تنام الأرصفة
توقظ الملائكةُ بلقيس من نومِها
وفي موكبٍ من فاتنات «غيمان»
تأتي الملائكةُ للصلاة

---

(٨) «آزال» من الأسماء القديمة لمدينة صنعاء.

وللطواف الليلي

يهتز صدر المدينة فرحاً

ويتنهد قلب الأرض في ارتياح

يا لها من فاتنة!!

بعد رحيلها أصيب الجمال بفقر الدم

وتحولتْ سيقان النساء

إلى عكاكيز للمشي).

القصيدة السادسة والثلاثون

لا مكان سواي يواري شجونَكَ
يؤوي شقاوةَ عينيك
قالتْ حجارةُ صنعاء وهي
تودعني..
ورحلتُ بعيداً
بعيداً
بعيداً

وأدركتُ حين اهترأتُ

تمزَّق جلدي

تورَّم حزني على الطرقات الغريبة

أدركت أن هوايَ هنا

أن مأواي عندَ حدودِ أصابِعها

أن قلبيَ

حيث الظلال المضيئةُ

والعتبات الجريئةُ

حيث الحدائقُ في ساحة القلب

في حدقاتِ العيونْ

* * *

(في الشتاء يقول لك الصباح المشمس الدافىء

تعال معي إلى «وادي ظهر»

نتناول طعامَنا بالقرب من «دار الحجر»

ونقرأ الفاتحة على الأجداد
أولئك الذين كتبوا قصائدَهم
بالأحجار
وتركوها على رؤوس الجبال
شاهدةً لا يدركها الذبول
ونجمةً لا تكف عنِ النداء.
تبدو الأرض أحياناً
وكأنها تتيه بما حملته من بذور
وعطور
وبما ازدانت به من مشاعل
وأعشاب).

القصيدة السابعة والثلاثون

لستُ أحتاجُ شيئاً لأدخلَ
في ملكوتكِ
أصعدُ في نشوة من أثيرِ التذكر
لا وقتَ يفصلُ ما بيننا.
بعد أن رجعتْ كلماتي إليك
ووجهي.
تذكرتُ ...

قالتْ منازلك البيضُ ذاتَ مساءٍ
إلى أين يا ولدي
من حليبِ الحجارة في حارةِ «المسك»[٩]
أطعمك اللّهُ
غذّاكَ
من ماءِ تلك الحجارة
واغتسلتْ مقلتاك
وأدركتَ سرَّ القصيدهْ.

* * *

(في شارع «الأبهر»
تسهو الأقدام عن السير
وتنشغل العيون برؤية التعاويذ
المصورة على الشبابيك

---

(٩) «حارة المسك» هي حارة مسيك إحدى حارات مدينة صنعاء.

طيورٌ وفراشات

حيواناتٌ وحشيةٌ تزين الأقواس

مصباحٌ صغيرٌ معتمُ الإِطار

يقف عند مدخل الشارع الضيق

تقول العجائز:

إن خيوط ضوء سحرية

تخرج منه في أنصاف الليالي

وتروي للمحظوظين من سكان المدينة

وزوارها

حكاية كنوز المعرفة التي أخفاها الحكيم أسعد الكامل

ومن أصغى إليها يوماً

صار حكيماً أو شاعراً).

القصيدة الثامنة والثلاثون

يشرب الغيمُ قهوتَه فوقَ
«عيبان»
يُلقي وشاحاً من الظل
فوقَ القرى
وهي تعزف فصلَ الربيع
تغني لأشجارِه المزهرات
هنا مشمشٌ تتوهج أوراقهُ

وهنا اللوزُ يضحك

والخوخ

والورد في عنفوان انتفاضته

يسحب الغيم أثوابه

يتوارى على كتف الريح

يمضي،

إلى أين؟

في وسعِه أن يطيرَ إلى البحر

أن يرتقي جبلاً آخراً

أن ينام.

* * *

(عندما تذهب إلى حمام «الطواشي»

لا بد أن تهبط عبر سلَّم حجري أملس

يجعلك تتساءل وأنت تلامسه بقدميك

العاريتين:

كم عدد الأقدام التي هبطت عليه.

نساءٌ، ورجال

ملوكٌ وصعاليك

فقراءُ وأغنياء.

سوف يسحرك صوت المغني العجوز

القابع بجوار الخزانة يعد النقود

في «المخلع»[10]

تنتشي الكلمات والأصابع

وهي تلامس الجدران المبللة

بالندى الساخن

وفي «الصدر»[11]

(١٠) «المخلع» حيث يخلع المستحمون ثيابهم.

(١١) «صدر الحمّام» قلب الحمّام.

يمارس الجسد غوايته اللذيذة

مع الماء والنارا).

القصيدة التاسعة والثلاثون

متعباً وضعيفاً

هو البردُ في شهر «كانون»

تهزأ منه النوافذُ

تفزعهُ الثرثراتُ على عتباتِ

البيوت

وساعةَ يغلبهُ النوم

يأوي إلى جبلٍ للنبي شعيب به مسكنٌ

وضريحٌ

وقبلَ انبلاج الصباح
يغادر صنعاءَ خوفاً من الشمس
صنعاءُ نائمة في سرير من الدفء
تحرسها سبعة من جبال «الطيال»[١٢]
وسبعون مئذنةً
أيها البرد لملم خطاك.

* * *

(في الصيف يقول لك الصباح المبتلُّ
برذاذ المطر
تعال معي إلى «وادي السر»
لنشرب القهوة تحت دالية مثقلة
بعناقيد «الرازقي»
هناك حيث سترى عيناك

---

(١٢) «جبال الطيال» في خولان وهي بمعنى الطوال.

خمسةً وعشرين صنفاً من العنب
وسماءً مفتوحةً للضوء الأخضر
ستجد الطيور سكرى على العناقيد
وكأن هذه الأخيرة وسائد من نوع خاص
وستعترف بأنك لم تذق عنباً
بمثل هذه الحلاوة).

القصيدة الأربعون

أي شيءٍ هو الوقتُ يا صاحبي

إن خلا من زمانِ المقيلِ

أو انطفأت في الظهيرة نارُ النوافذ

وانكفأتْ ناطحاتُ السحابِ على نفسِها؟

والقصائدُ، ماذا تكون

ومن سوف يغسلها من غبار النهار

ومن زحمة السأم المتربص في الطرقات؟

المناظر، من سوف يوقد شمعَ الحديث بأطرافِها
ويمدُّ أصابِعَها للهموم؟
المقيلُ هو الوطنُ المتألق
والزمن المتحقق
صنعاءُ باهتةٌ في الظهيرة
مخضرَّةٌ بالمقيل.

* * *

(آسرةٌ هي ساعات المقيل
في هذه المدينة المسورة بالتاريخ
يجلس الأصدقاء بعد أن تميل الشمس عن وسط السماء
متحلقين في «المناظر» أو «المفارج»
يستحلبون أغصان الأسئلة
ويتدثرون بمعاطف من الورد لها رائحة الملائكة

السيوف الميتة على الرفوف تتذكر

وتخرج الأغاني من الجدران والسقوف

لتشارك في حديث الشعر والنسيان

وجه الصداقة أخضر شارد

الشفاه مبللة بشهوة الحوار.

في المقيل يصبح الوقت من الذهب

والكلام من الذهب أيضاً

وفيه تهاجر الأجساد

وتتحول اللغات إلى عشبةٍ ناطقة

يا له من بهاء صامت

ومن شجرة تشرب القهوة

وتداعب عري الأشياء).

القصيدة الواحدة والأربعون

لهذي المدينةِ رائحةُ الورد
طَعمُ «ابنةِ الصحن»
ملمسُها ناعمٌ كالحرير
وأحزانُها كزجاج تناثر تحت الجفون
إذا ضحكتْ فالفضاءاتُ مورقةٌ بالشذى
وإذا ما بكتْ فالدموعُ الحبيسةُ في الأرضِ
تنداح

رائعةً وملونةً .. كالفراشةِ
تمضي على كتفيها حصادُ السنين،
وأشجانُ من ذهبوا
وهي نشوانةٌ تترقرق حباً ولوناً
وتخضلُّ كالشجر العذب
تسرق من جسد الوقت ماءً
وفاكهةً
ونجوماً وفيضاً من الذكريات.

* * *

(بريئة هي وملتصقة بجمال أزلي
تستيقظ على أصوات العصافير
وتنام على هديل الحمام
وأنغام المزامير القادمة من الضواحي القريبة

شتاؤها خجول ودافىء

صيفها بارد حنون

في مواسم الربيع يفتح الأهالي

شبابيك منازلهم في الصباح الباكر

لاستقبال هدايا الورد والنسرين

فيما مضى

كانت تشرب من نبع جبلي

أفزعته الحرب فاختفى

وكان لها نهر صغير تشتاق إليه البساتين

لكن أصوات المدافع أرغمته

على الهجرة).

القصيدة الثانية والأربعون

هي ذاكرةٌ تتحرك
مأهولةً بالشجون وبالزفرات
لها مجدُها، وقناديلُها
ولها من حياء العذارى
ومن خفرِ الورد
قافيةٌ وحدائق
تومض مثل الشعاع

وتصعد مثل الندى

في ليالي الشتاء تشد الرحال الحكايات

تصبو إلى وطنٍ آمنٍ

وتهز الشبابيك باحثةً

عن بقايا من الدفء

بين الحقيقةِ

بين الخيالِ

تنام هنا خلف حجْراتها

الدافئهْ.

* * *

(سيدتي هل تتذكرين

ذلك الشاعر الحزين حتى العظم

المتألم حتى الأعماق

تماهى فيك، وأوقف شعره عليكِ

إنه «ذو جدن»

كانوا يطلقون عليه في عصره لقب «نواحة اليمن»

ذلك الهائم في الفلوات وبين الأطلال

آثارُ قدميه الداميتين محفورةٌ

على صخور الجبال

وبقايا دموعه مرسومةٌ

على واجهات البيوت

كأني أراه الآن وهو يلملم حجارة المعابد

من تحت أقدام الغزاة).

القصيدة الثالثة والأربعون

هي سيدة الضوء

لكنها حينما تشتهي الغيم

ينكسر الصحو

تصعد في غيمةٍ من بخور «سُقَطرة»

بيضاءَ

تكسو به شغفَ الشرفات

وشوقَ النوافذ

تحرقه زبداً ومرايا

وتجمع أوصالَه الريحُ

ثم تبعثره في نعاسِ الفضاءات

والعشب

هل هي سيدةٌ للغيوم البريئة

نافذةٌ للنقاوة

أم هي سيدة للبخور؟!

* * *

(مثل زيت القناديل القديمة

يحترق الزمن في سراديبها

صامتاً

وتتمخض الأشعار عن خوف من الصحراء

والغبار

وعن حلم غائم بالحرية
ومع الندى الشفاف المؤتلق
وعلى سفح هضبة من هضاب النهدين
يتمتم شاعر معاصر:

«تُحيِّها؟
وشوشوني، والتصقتُ بها
شعثاءُ من سَفر التاريخ غبراءُ
مَنْ منكمُ لم يجدْ فيها طفولَته
وتخترقْه ــ ولو لم يذْرِ ــ صنعاءُ؟»).[١٣]

(١٣) بيتان للشاعر العربي الكبير سليمان العيسى.

القصيدة الرابعة والأربعون

يباغتني صوت «مريم»
يحفر جرحاً بذاكرتي
وجروحاً بقلبي
وتأخذ أحلامُنا شكلَ صنعاء
لوق براءتِها
مريمُ امرأةٌ لم تغادر زمانَ الطفولة
حين طوى الجوع أحشاءَها بين فكيهِ

واستسلمت للرحيل

بكى وجهُ حارتنا

أطفأَ الحزنُ لونَ قناديلها

وارتدت كفناً من ظلامٍ عميق

تساءل أترابُ مريم هل ستغيب كثيراً

عن الحي

أم أنها في سكون المساءِ ستأتي

محملة في سرير من الضوء

مريم يا للملاك الجميل

هنا انتظري في سواد العيون.

* * *

(١٩٤٧.

صنعاء مدينة نائمة في الموت

لا أكفان تكفي لهذا العدد الهائل
من الموتى
الناس جلود ملتصقة بالعظام
مريم كفّت عن الغناء
وتوارى الملاك الجميل تحت التراب
كيف ذهبت مريم وبقيت أنا؟
بعد عام من الصمت والدموع
قالت الأم:
مريم، كانت تعطي رغيفها اليومي
للأطفال القادمين من تهامة).

القصيدة الخامسة والأربعون

ذات يومٍ تسلقتُ ياقوتةَ

الصبر

وارتفعتْ بي شجوني إلى سفحِ

«غيمان»

شاهدتُ «صنعاءَ» تدفن أحزانَها

وتصلي على جثثٍ لا قبورَ لها

ورأيت المآذن تبكي

وشاهدتُ لونَ القباب

وقد صارَ أسود

والشرفاتِ الجريحةَ تخلعُ زقزقة

الورد

جفَّ مدادُ الكلام

وأطلقتُ للذكريات عنانَ

الدموع

ولكنها بعد أن دفنتْ حزنَها

في خفاءِ الجبال

استعادتْ محاسنَها

وابتسامتَها

ثم عادتْ إلى عطرِها ومناسِكها

يا فتاةَ الزمانِ الجديد

وأمَّ الزمان القديم

سلامٌ عليك،
على زهرةِ الروح توصد أكمامَها
لصباحٍ من الحلم والدم
تفْتَحُ أكمامَها لصباحٍ
من الحلم والرحلة الصاعدةْ

* * *

(من هنا،
من باب شُعوب دخل حصانُ طروادة
في عام ١٩٤٨م.
كانت المدينة المسكونة بالخوف
والفقر والجمال
قد رأت في المنام أنها تعانق البحر
وأن الضوء لم يعد ينتحر

على النوافذ

وأن الشوارع بدأت تدندن بأغانٍ

غير مألوفة

لكن العتمةَ أفشت أسرار المنام

إلى الليل

والليل تحدث بها إلى الأسوار

الأسوار تحدثت بها إلى الضواحي

والضواحي بلَّغت النمل الأسود

فهجمت الحشرات،

واحترقت أعشاش الطيور

الملونة

وعاشت المدينة عشرة أعوام بلا نوم

رغم أنها تستخدم الحبوب المنومة

ولا تقرأ الجرائد).

القصيدة السادسة والأربعون

العصافيرُ تسألُ عاصمةَ الروح
ماذا جرى؟
لكِ عينانِ مثقوبتان
من الدمع
وجهٌ يبللهُ الحزن
نهدان يحترقان من الخوف
صدرٌ ينوء بأوهامه،

كل شيء يموت

ولا شيءَ يولد

في أرقِ الوقتِ تُمضين

أيامَكِ الباقيات

وتُحصين أيامك الخاليات

وما بين خيطِ النهار

وخيطِ

الظلام

سوادٌ هو الحقدُ

يغتال عاصمةَ الروح

يشعل معركةً

في التراب.

* * *

(لم تعد الحارات ترقص وتغني

في الفضاء رصاص،

على الأرض دمع ودماء،

أبواب مخلعةٌ

نوافذ تشكو الفراغ

لغةٌ مجهولة خاوية بلا لون ولا مطر

وجوهٌ غريبة

أشجارٌ نافرة

جنونٌ، إذعانٌ، احتضار

حصانٌ في عينيه حزنٌ عتيق

وأشواقٌ إلى تخوم

ملأى بالبروق والنوافذ

في وجه الأحجار ضجرٌ صامت

وعلى الأفق البعيد رفيفُ أجنحةٍ
وغيومٌ ترسم صورة للمطر
والفراشاتُ تحلم بالعشب الأخضر).

القصيدة السابعة والأربعون

روحُ هذي المدينةِ طافيةٌ
فوق ماءِ السنين
فلا توقظوها
دعوها تَئِنُّ، وأطفالَها يسعلون
ولا تشعلوا الضوءَ داخلَ أحيائِها
الشاحبات
فما زالَ في الطرقاتِ دمٌ مفرطٌ في عذوبتِهِ

لشهيدٍ قضى حقَّ موطنهِ
وطوى صفحةَ العمر قبلَ الأوان
دعوها تنام لتنسى
دعوها تنام لتذكر
لا تخدشوا برعود الكلام ضريحاً
أقام به حزنُها
وعلى سطحِهِ جثث نائحات
ومن تحته جثث ضائعات.

* * *

(أرقٌ في العيون
عطشٌ يرتعش في العظام
تحاول صنعاء الإغفاءَ لكنها لا تستطيع
جثث القتلى تقف حائلاً دون تلاقي الأجفان

تفتش عن صوتها في السكون الموحش

فلا تراه

أحلامُ اليقظة سوداء في لون الحقد

الرابض في صدر الحاكمين

من الذي جعل الإنسان وحشاً؟

من الذي جعل الوحش على هيئة إنسان؟

لماذا يحفر البشر في صدورهم آباراً عميقة

يستخرجون منها هذا الصديد

القذر؟).

القصيدة الثامنة والأربعون

حرماً آمناً،

كان هذا المكان المقدس في شُرعة الشَّعب

في شُرعة الأوّلين من الناس

لا يدخل القلبُ ساحتَهُ قبل أن ينزع الحقد

من دمه

قبل أن يتوضأ بالحب

كيف استباحت طهارتَهُ «حاشدٌ وبكيل»

وكيف استجابت ضمائرهم لنداء الطغاة

فهبّت معاولُهم تهدم الجسَدَ المتوهّجَ
في شَرَيان الجزيرة
لم يحفلوا بضراعة تاريخهم
باستغاثات بلقيس
باعوا فضائلهم وشجاعتهم
بدراهم معدودةٍ،
وسراب وعودٍ
وكيف استباحوا مدينتهم
والحرم؟!

* * *

(تقع صنعاء ــ جغرافياً ــ في قلب
اليمن القديم
وهي محاطة بسور من الرجال الأشداء.
من حاشد وبكيل.

وحاشد وبكيل نخلتان عربيتان
ابتدأتا من الأساطير
وامتدت فروعهما شرقاً وغرباً
من الساحل الذهبي في الأندلس غرباً
إلى مرتفعات طوروس
وإلى جبال عمان شرقاً
في مارس ١٩٤٨ كانت القبيلتان

ضحية خديعة ماكرة

تقول إن صنعاء أعلنت الكفر
واستبدلت القرآن بالدستور
فكانت الكارثة.
وفي سبتمبر ١٩٦٢
غسلت حاشد وبكيل عار الخديعة
بالدم).

القصيدة التاسعة والأربعون

امسحي دمعَ قلبِكِ
دمعَ النوافذِ والشرفات
اخرجي من ثيابِ الحداد
ومن نارِ هذا الشحوب
غداً تورقُ الكلمات
ويخرج من مائها الشهداءُ
وفي دمِهم تتبرعمُ وردةُ أحلامِنا

وتفيضُ على الناسِ عدلاً وخبزاً
ويقتسم الناسُ شمسَ مودتِهم
ونجومَ انتفاضتهم
فامسحي عن وجوهِ البيوت بقايا
البكاء
ولا تيأسي
ودعي الأرض تهطلُ حقداً
على الظالمين.

* * *

(مدي شراع عينيك بعيداً،
بعيداً
إلى ما وراء «غيمان»، و«مأرب»
بشائر الفجر تلوح خلف الليل الخانق

الأشجار الميتة تحلم بالخضرة
لا يستطيع هذا الظلام أن يحول
دون طلوع الشمس مرةً ثانية
قصائدُ الشعر الصاعدة من الزنازن
تحمل الربيع إلى الأرض
الجديدة،
وتسافر خارج تضاريس الخوف
باحثة في الصيف
عن فراشات خضراء تطارد
القحط
وتحلم بالمروج الخضراء).

القصيدة الخمسون

هي نائمةٌ لم تمتْ

سوف تخرج من نومها

(بعد عام؟)

أقول لكم بعد عشرين عاماً

وتغسل أقدامَها بدماءِ الملوك

سترقص حتى الصباح

وحتى المساءِ

وتنزع أسنانَ جلادِها وأظافرَهُ
لا شماتةَ .. لا يأس
سوف يغادرها النوم
ساعةَ يخرج أبناؤها الصالحون من النوم
يا قرّةَ العين
هل شبعتْ مقلتاكِ من الخوف
هلاّ مللتِ التوابيتَ
وانكسرتْ في تخوم الكوابيس
سُحْبُ الكرى، ومرايا النعاس؟!

* * *

(حراس الأطلال الميتة
يقفون على الأبواب
ويسيرون بحرابهم المصقولة في الشوارع الخالية
إلاّ من القطط الهزيلة

وبقايا الكلاب الضالة.
ماذا تحرسون أيها الجياع الكسالى
هل تحرسون السكون؟!
عجباً إنه يحرس نفسه!
أسألكم بما لهذه المدينة من تاريخ
لماذا حين تمر الرياح بأسوار مدينتكم تستلقي بهدوء
والعواصف لماذا — في بلادكم — تجري مع التيار
كأنها أسماك ميتة؟!
أيها الجنود الكسالى
اخلعوا هذه الثياب الباهتة
واخرجوا مع الحطابين إلى الجبال
وتعلموا كيف تقطعون الأشجار الهرمة
والصخور».

القصيدة الواحدة والخمسون

لا تخافي،
ولا تحزني،
سرقَ الليلُ يومَكِ
واقتنَصَ الخائنون بأهوائهم
كل ضوءِ المصابيح
لكنه آخر الليل،
لا تحزني،

فالزمانُ الجميل سيأتي غداً
والمصابيحُ تخرج زاهيةً في ثياب
التلاميذ
هم موفدوك إلى زمن لا غبار به
لا لصوص،
أفيقي،
زمانُ المرارات ولَّى
زمانُ الذباب الأنيق
زمان الحماقات والصولجانات
ولّى،
ويوشك أن يحتويك
الزمانُ الجميل.

* * *

(حسناً،

هذه طرق مقمرة

وشوارع تأخذ شكل المرايا

هنا حوانيت للحرير

وهناك مكتبات لبيع دواوين الشعر

سوق للزهور

وأخرى للأعشاب العطرية

على الناصية شاب يعزف

الناي

وفتاة ترسم بالألوان واجهة بناية

جديدة

لا مكان للعربات،

حين تجوع تناديك رائحة المطاعم
المتدلية من الشبابيك
صنعاء لم تعد طفلة
لقد نضجت
صارت أماً).

القصيدة الثانية والخمسون

حَطَّمَتْ قيدَها
وأباريقَ أحزانِها
وأتى الشعراءُ من الشرقِ والغرب
في سحبٍ فاتناتٍ، يغنون،
من كل عصرٍ أتوا
يتقدمهم شعراء يمانون
كانوا ببغداد،

كانوا بجِلّقَ،
في مِصْرَ، في أرض أندلسٍ
إنه مهرجان الخروج
أراقت به الشمس ما ادخرته من الضوء
واللون،
من ماء دهشتهم
يطلق الشعراءُ قصائدَهم
وارتدى قصرُ غمدانَ أثوابهُ
قبل أن تتعاوره العاصفات
ويأوي إلى الظل
منكسراً لا يبوح.

* * *

(التصقت عدن بصخورها السوداء

ونازلت تماسيح المحيط

ورسم البحر أولادَه بعد قرن

من انتظار الطلق

وكتب «غيمان» على أعمدة من المرمر

نقشَ السبعين العظيم

وكان جنديٌّ ثائر قد خرج من كوخ

في حي صنعاني

قديم

وأمسك بالصولجان

وقال للسجناء في منازلهم وفي أثوابهم:

اخرجوا فقد طلعت الشمس

وبدأ الشعراء يتجولون في باحة القصر الجمهوري

وهم يتساءلون:
أهذه مدينة ثابتة على الأرض أم لوحة
معلقة في الفضاء؟
وإذا كانت مدينة فمن أين لها هذا الهواء
الراكض في رئة الأرض؟
وهذا الجمال الإضافي الذي يترقرق في
الأفق المغسول بالضوء
والبهاء).

القصيدة الثالثة والخمسون

ضاقَ وجهُ المسافةِ بينَ الجبالِ

وبين الشواطىء

وانحسرتْ موجةٌ حملتها

رياح الغزاة

أفيضي على الأرض يا أمُّ

من حبكِ المتوهج

من ثمراتِ الفؤادِ المخبأ

يعصف بي شَغفُ الالتصاقِ مع البحر

سيدتي

كلُّ حسناء من مدنِ الأرض

جاءتْ إليكِ

وأهدتكِ ورد لقاءٍ تأخرَ

موعدُهُ

وجبالُ العقيقِ أماطتْ لثامَ الثرى

عن جواهِرِها

واصطفت لك منها النفيس

تباركتِ يا عدن المنتهى[14]

يا شقيقةَ صنعاء

يا توأمَ الاكتمالْ.

---

(١٤) «عدن المنتهى» إشارة إلى بيتي الشاعر العربي:

تقول عيسي وقد أمّت ركائبنا

لحجاً ولاحت ذرى الأعلام من عدنِ

أمنتهى الأرض يا هذا تريد بنا

فقلت كلا ولكن منتهى اليمنِ

* * *

(مرَّ زمن طويل على قتل ذي يزن

لكن العيون ما تزال مفعمةً بحزنٍ إنساني

بالغ الحضور

أنيـنُ روحهِ يتصاعد من خرائب قصر غمدان

ورنينهُ الحزين يثقب قلبَ الجدران

كم من الناس الذين كانت حياتهم مصدراً

للضياء غادروا هذا المكان

وبقيتْ روائحهم الطيبة

وفي الأُمسيات الهادئة

تخرج أرواحهم النقية لمحاورة

الشوارع

وهي تتلو المقامات العذبة لأغانٍ

لا يسمعها إلاّ الأطفال

والشعراء).

القصيدة الرابعة والخمسون

آه،

كل الدروب تؤدي لصنعاءَ

لكن صنعاء ـ منذ السنين العجاف ـ

محاصرة ببنيها .. بعشاقها الكاذبين

ومن أجلهم فهي تنسى سريعاً

وجوه المحبين

تكتم أسرارَها
وتخبىء في حانةِ الخوف أطفالَها
كلّما قلتُ إني وصلتُ إليها
نأتْ
وإذا ما رأتني رفعتُ
أصابع خوفي
وأطلقتُ حزن القصائدِ للريح
مُسْتَفْسِراً:
هل يخون الحبيبُ
وهل يخدع العشقُ أبطالَهُ
ويخاتل وردَ الكلام
أَمَ أنّ النساء ـ المدائن
ينزعنَ للهجرِ
يُلهمن جمر الهوى

بافتعال الجفاء؟!

* * *

(ظلي معلقٌ على جدران هذه المدينة
وكلماتي المغسولة بدموع الشوق
تظل تطوف حول أسوارها!!
وقصائدي
لا تتحرك ولا تمارس الحياة
إلاّ إذا اصطدمت بإيقاع المزامير
الأليفة،
الصاعدة من الحارات
الشعبية
لا أريد لصنعاء أن تسامحني إذا
أخطأتُ

أريد لها أن تحدق خارج خرائط العزلة
وتغادر تخوم الخيبات
وأن ترحل سريعاً نحو الأفق
المشتعل بالماء والضياء
وهي تعلم أن حبي لها سيبقى
إلى آخر ورقة في كتاب العمر).

القصيدة الخامسة والخمسون

كأني بهم ـ يسألون ـ
وقد رحلوا من مئاتِ السنين:
لماذا تجاهلت الكلماتُ مدينَتنا
ورأيتُ «خزيمةَ»[15] .. أمواتَها
ومنازلَها
غير لائقةٍ بدخول القصيدة؟
أوجعني

(١٥) «خزيمة» من أشهر المقابر القديمة في صنعاء.

انغرزتْ كلماتُ السؤال بقلبي
شظاياه أدمَتْ حروفَ الكلام
وبدَّددتِ الحلمَ المتدفق
يا أيها الهانئون بعطلةِ أجسادهم
لا تلوموا غبارَ القصيدة
إن مدينَتكم هي أولُ ما يقرأ الشعرُ
آخرُ ما يكتبُ الشعرُ
تغسلُ بالدمع وجهَ مدينتِنا
ويديْها
وتصافح ـ بالحزن ـ أكفانَها والنعوشْ.

* * *

(هذه بيوت الموتى
لا تضيء إلاّ في الليل

في النهار يغشاها الأسى

ويدثرها الكمد

تحت هذه الأضرحة يرقد اللحم والعظم

أما الأرواح فقد نبتت لها أجنحة

وطارت إلى الأعالي

المقبرة صغيرة لكنها تتسع لكل الموتى

المساواة ــ هنا ــ في ذروة رحمتها

بين من عاش دهراً طويلاً

ومن عاش أياماً معدودات

هل تختلف الأصابع في القبضة الواحدة؟

مسكين ... الإنسان

رحلته تقوم على إيقاع ثلاث كلمات

بكى،

تعب،

مات).

القصيدة الأخيرة

كلُّ آجرّة فيكِ

كلُّ المآذن، كل الحجارةِ

تشكره،

تشكر اللّه

أجرى مياه الجمال بآجرّها ومآذنها

ومنازلها.

والقصيدةُ،

كل التماعةِ حرفٍ بهذي القصيدةِ

تشكره،

تشكر الله ألقى بها قطرة من رذاذ

تناثر من بحر أندائهِ

فأضاءت

ومن ماء قلبي، استوت

موجةً، موجةً

وكتاباً، كتاباً.

* * *

(قادني قميص الكلمات

وقاد الحروفَ العمياء

إلى أحياء المدينة العتيقة

فاستعادت الحروف ذاكرتها

وبصرها

رأت رخام اللغة يتدلى بين السماء
والأرض
وضوء المعنى يبرق
ويتنزل من قبة العرش
لم يكن حلماً
كان حقيقة مبتلة بندى الليل
ونشوة النهار الأخضر).

كانت

امرأة

هبطت من ثياب الندى

هطلت

ثم صارت

قصيده.

* * *

المؤلف

عبد العزيز المقالح من مواليد ١٩٣٧

شاعر ومفكر من اليمن.

رئيس جامعة صنعاء.

أبرز مؤلفاته الشعرية:

- لا بد من صنعاء
- مأرب تتكلم
- رسائل إلى سيف بن ذي يزن
- هوامش على تغريبة ابن زريق البغدادي
- الخروج من الساعة السليمانية
- أبجدية الروح

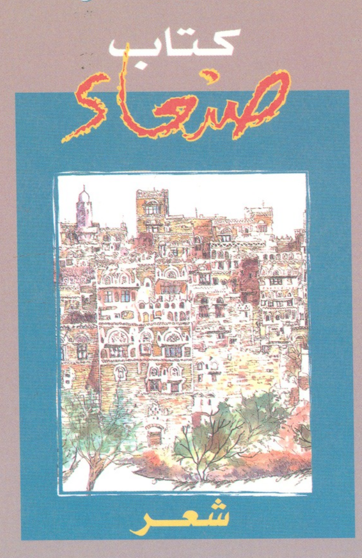
أبرز مؤلفاته النقدية والفكرية:

- الأبعاد الموضوعية والفنية للشعر المعاصر في اليمن

- شعر العامية في اليمن
- أزمة القصيدة العربية (مشروع تساؤل)
- من البيت إلى القصيدة
- أصوات من الزمن الجديد
- عمالقة عند مطلع القرن
- قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة

عبد العزيز المقالح

كتاب صنعاء

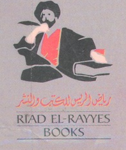


شعر

هذا الديوان «كتاب صنعاء» للشاعر والناقد والمفكر اليمني عبد العزيز المقالح، كناية عن قصيدة حب طويلة إلى «صنعاء».

إنه نشيد تعلو نبرته وتتفرع أغصانه في أشعار ترمي إلى غناء صنعاء، وتفكيك طلاسم الأبجدية الحضارية لمدينة بقدر ما تبدو في متناول العين، فإنها تمضي في الغموض والسحر والعصيان.

عبد العزيز المقالح يقلّب النظر في صنعاء، عاصمة الروح، الهاطلة من كتاب الأساطير والتي عمرها من عمر سام بن نوح، بقصورها المعتقة وزخارفها التي لا تنتهي. بحيث تغدو صنعاء مدينة جميلة لا تخضع لحساب الزمن، تماماً كالنساء الجميلات. أما بالنسبة إلى العرب فهي فردوسهم وانطلاقتهم الأولى، وعلى شفتيها من أرض وسماء، موجز تاريخهم.




1855134012